الأنساق الثقافية في شعر ابن لنكك

Cultural patterns in Ibn Lenkak's poetry

م.م.سجى مؤيد عبود
جامعة تكريت/ كلية الآداب / قسم اللغة العربية
Sjym343@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث المعنون بـ(الأنساق الثقافية في شعر ابن لنكك)، أهمية دراسة أبعاد النسق الثقافي كما يظهر في النماذج الشعرية، حيث يركز البحث على دراسة النسق الثقافي من ناحية اجتماعية لأنه المجال الأكثر تعبيراً عن القضايا الشفافة الواقعية التي يعكسها الشاعر في نتاجه الإبداعي، كما ركز البحث على تأسيس معطيات النسق النفسي كما يظهر في المفردات والأفكار التي يعبر عنها في نماذج شعره.

كلمات مفتاحية: (النسق، الاجتماعي، النفسي).

Abstract:

This research, entitled (Cultural Systems in the Poetry of Ibn Lenkak), addresses the importance of studying the dimensions of the cultural system as it appears in the poetic models, as the research focuses on studying the cultural system from a social perspective because it is the field that most expresses the transparent, realistic issues that the poet reflects in his creative production. The research also focused on establishing the data of the psychological system as it appears in the vocabulary and ideas that he expresses in his poetic models.

Keywords: (system, social, psychological).

مقدمة:

إنَّ الانطلاق من قراءة الأنساق الثقافية لنص ما على اختلاف جنسه الأدبي يكشف عن المرجعية الفكرية التي شكّلت كيان النص، لأنها تعكس الخلفية الثقافية للنص انطلاقاً من التماس دوافع المبدع التي شكّلت تجربته الخاصة.

كما باتت وظيفة النقد الثقافي هي في البحث عن الأنساق الثقافية المتضمنة في النص الشعري بخاصته، والدعوة إلى ملاحقة تطورها عبر العصور التي لا يمكن الوصول إلى استنتاجاتها إلا عبر استراتيجية النقد الثقافي «فالنقد الثقافي هو توسّع في مجالات الاهتمام والتحليل للأنساق الثقافية بكل ما تعنيه

الثقافة، من إننا لا يمكن التحدّث عن نقد ثقافي دون معرفة واسعة بالميادين والمعارف والنظريات الأدبية والإعلامية والثقافية»[١].

المبحث الأول

النسق الاجتماعي في شعر ابن لنكك

إذا كان النسق هو ما يشكّل معنى «الانتظام عموماً في بنية معينة بما يتناغم وينسجم فيما بينه، ليولد نسقاً أهم وأشمل، وعلى سبيل المثال يُوصف المجتمع بأنه نسق اجتماعي عام ينتج عنه مجموعة أنساق فرعية انتظمت معه، وشكلته فتولّد عنه نسق سياسي وآخر اقتصادي علمي ثقافي، تنسج علاقتهما فيما بينهما في مسافات متفاعلة ومتداخلة»[٢]

ولذلك عندما نقبل على معاينة الشاعر لكل أثر اجتماعي، فإنه بالأحرى ينطلق من الواقع، ومن مثال النسق الاجتماعي عند الشاعر:

مضى الأحرار وانقرضوا وبادوا ... وخلّفني الزمانُ على عُلوج
وقالوا قد لزمتَ البيتَ جداً ... فقلت لفقد فائدة الخروج
فمن ألقى إذا أبصرتُ فيهم ... قروداً راكبين على السروج
زمانٌ عزَّ فيه الجودُ حتى ... تعالى الجودُ في أعلى البروج[٣]

يُعالج الشاعر في هذه الأبيات عبر معطى النسق الاجتماعي مسألة تخلخل القيم الإنسانية، إذ يفسّر هذا المنحى عبر إيراد صورة التشابيه السلبية، إذ يجد أنَّ الناس في عصره قد قلَّ فيه فعل الخير والكرم وتنافت فيهم شيم الكرام، لذلك يسعى إلى إظهار هذه الصورة عبر تشبيههم بالقرود، وقد فسّرت هذه المعالجة عند الدارسين أنها ناجمة عن حالة الوعي التي يصدر عنها الشاعر في قدرته على رصد ما يسود مجتمعه في الناحية الاجتماعية، «فقد شكلت الرؤية الاجتماعية عند ابن لنكك حاجزاً يحول بينه وبين الآخرين، وهذا يفرضه واقع متمرد عاشه الشاعر، إلا أنه تضمّن دلالة وعي الإنسان بالآخر، حيث تستلب منه هواجس النزوع إلى الجماعة، فلا يرى الشاعر في أيامه سوى الحسرة والألم -»[٤]، لذلك يتخذ

(١) التلقي والسياقات الثقافية، عبد الله إبراهيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، د. ت، ص: ١٤
(٢) التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص: ١٥٦
(٣) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، منشورات الجمل، ط١، ٢٠، ص: ٤٠
(٤) أزمنة المواطنة في شعر ابن لنكك، رائد الدليمي، مجلة كلية المعارف، عدد ٢٧، كلية الآداب، جامعة الأنبار، العراق، ٢٠١٨، ص: ١٨٠

اشاعر من النقد الاجتماعي في نماذج لفئة من طبائع البشر في عصره ما يساعد على تفسير شكل النسق الاجتماعي الواقعي.

ومن تجسيد معطيات النسق الاجتماعي ما يعرّي شكل واقعه بدقة، وكأنه ينظم ذلك عبر معاينة الأبعاد الاجتماعية التي تفسّر شكل وسلوك الفرد ضمن مجتمعه ومن ذلك ما جاء في قوله:

أيُّهـــا الشـــيخ الـــذي بـــرز قدمـــاً في الســـيادة
والـــذي أعطـــاه أهـــل الأرض في الســـبق المقـــادة
وأقـــرَّ الـــكلُّ منهـــم أنـــه عـــينُ القـــلادة
أنـــا يكفينـــي مـــن المـــشروب مـــا يكفـــي جـــرادة
وحديثـــي طـــال فيـــه مثـــل تفســـير قتـــادة[1]

يظهر الشاعر عبر خاصية النسق الاجتماعي الإرهاصات التي تشكّل صورة من طبائع مجتمعه، ممّا يدفع خلال التعبير قساوة الواقع إلى أبعد مدى مكاني، فهنا يتوجّه عبر أسلوب النداء المباشر (أيُّها الشيخ الذي برز قدماً) ، إذ يُعدُّ هذا النوع من التعبير من النسق المضمر، لأنه يريد أن يدلل عبر خاصية النسق الاجتماعي إلى انتقاد ما يجري في أساس ما ينخدع فيه الناس ويتعلقون بالظاهر، حيث تبلغ ذروة التفسير النسقي في قوله (أنا يكفيني من المشروب ما يكفي جرادة)، وقد يكون ذلك مترابطاً مع الأثر النفسي الذي يصدر عنه الشاعر كما يصوّر حالة أو صورة من صور التفكير في مجتمعه، وكثيراً ما نجد تفسير النسق الاجتماعي عبر صورة النقد أو السخرية، وجميع هذه الإشارات فيها تنبيه وتحذير لشريحة من المجتمع تقع على عاتقها مسؤوليات كبيرة.

ومن ذلك التوجّه عبر تحديد أسس النسق الاجتماعي فيما يقوم عليه من الكشف عن آفة الظلم باعتباره من المشكلات التي تعانيها الأفراد في الحدود المجتمعية، ومنه ما جاء في تناوله لفكرة الظلم:

يا ربّ سابغةٍ حبتني نعمةً كافأتها بالسوء غير مفنّد
أضحت تصونُ عن المنايا مهجتي وظللت أبذلها لكل مهند[2]

فقد يكون تناول الشاعر لمسألة (الظلم)، عبر تصوير انعكاساتها على نفسه، ما يريد إسقاطه وفق النسق المعرفي الاجتماعي، فلا يمكن أن ينقل الشاعر ما يحسُّ به في ذاته في انفصال عن القضايا التي تهم

(١) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص:٤٢
(٢) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد ، ص:٤٤

الأفراد من حوله، وما يظهر عبر البعد الفردي فهو يشمل حدود التعبير عن هواجس الجماعة، فكثيراً ما صوّر الشعراء مرارة الظلم، لذلك يتوجّه الشاعر في الحديث عن حالة الظلم التي قد لا يستحقها المرء، ولا سيما إذا كان يفعل الأشياء المستحبة إلى القلوب، ولكنه القدر الذي لا بدَّ أن يلاقيه، وهذا التشكيل يعطي أهمية في الوقوع على النسق الظاهر في إعطاء شكل النسق الاجتماعي كما يصوّره الشاعر بدقة.

وقد تكون الحكم النصيحة الصادرة عن الشاعر هي من أقرب ما يفسّر شكل النسق الاجتماعي، ومن ذلك التوجّه ما جاء في قول الشاعر:

لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... تسعة أعشار من ترى بَقَرُ
تراهم كالسحاب منتشراً ... وليس فيه لطالب مَطَرُ
في شجر السرو منهم مثل ... له رواءُ وماله ثمرُ[1]

فكما يتراءى للقارئ أنَّ الشاعر يعرض عبر الانتقاد والمباشرة ملامح التشكيل لأبعاد النسق الاجتماعي، وإذا كان مفهوم النسق الاجتماعي كما ذكرنا يقوم على تحديد ما يعانيه الفرد من أزمات، فإنَّ الشاعر لا ينفك عن اختيار ما يتناسب مع ذلك، وهنا يتخذ الشاعر من أصحاب اللحى موضوعاً لانتقاده، فيستحضر التشابيه المنفرة التي لا تستحب، علّه يجد أثراً من ذلك في نفوس الناس من حوله.

وهذا التعرّي الاجتماعي هادف إلى تعزيز الفعل النصحي كما يظهر لنا في سياق التناول الشعري، وكثيراً ما يظهر لنا تفسير النسق الاجتماعي من ناحية النقد الهادف، «بما ينعكس في صورة النقد والإصلاح الاجتماعي للمؤسسات والأفراد لتصحيح الأخطاء الخارجة عن قيم المجتمع الفكرية والثقافية»[2].

ومنه ما يتناوله الكاتب من رصد للأبعاد الاجتماعية وفق معطى النسق، ومنه ما جاء في تسليط الضوء على ظاهرة الفقر الاجتماعي كحالة تسود المجتمع، ومن ذلك التصوير ما جاء في قول ابن لنكك:

وما الفقرُ إلا للمذلة صاحب ... وما الناس إلا للغني صديق
وأصغرُ عيب في زمانك أنه ... به العلم جهلٌ، والعفاف فُسوق
وكيف يُسرُّ الحرُّ فيه بمطلب ... وما فيه شيءٌ بالسرور حقيقُ[3]

فهذه الصورة عبر تداعيات النسق الاجتماعي تعطي حالة المقابلة بين تعلّق الناس بما كان في جانب السلطة والجاه عازفين عن الفقير الذي لا مقومات يمتلكها كما في حال أهل الجاه، وهذا يُعدُّ وسيلة عبر

(١) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٤٥
(٢) دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر، المطبعة الأنموذجية، د.ت، ص: ١٨٨
(٣) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٥٧

التحقيق الشعري «حيث أخذ الشعر الاجتماعي في تناول حياة الناس العادية اليومية ، ونادى بالعدالة الاجتماعية، ومحاربة الفقر والعمل، ومعالجة الأمراض الاجتماعية والآفات الخلقية، ومشاكل المرأة،.. ومن الشعراء لجأ إلى الرمز لنقد الناس في مواقفهم وتصرفاتهم»(١).

وهنا كما نلاحظ أنَّ الشاعر يتبع هذا المنحى في الكشف عن الآفات الخلقية التي تنعكس على المجتمع بعامة، ومن ناحية أخرى ، فإنَّ تفسير تضمن النسق يعكس حالة التأثر بين الشاعر والمجتمع ضرورة، لأنَّ الشاعر «يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته، والقائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع»(٢).

لذلك نجد الشاعر دائم التوجه إلى تسليط الضوء عبر النسق الاجتماعي فيما يستطيع أن يضبط ويُعالج ما يجده منافياً لطبيعة المجتمع القويم ، ومن ذلك ما جاء في تعرية صورة الواقع في انقلاب الموازين ، حيث لا عقل راجع يستطيع أن يحافظ على ضبط الأمور وموازنتها، ومن ذلك ما جاء في خطابه التوجيهي:

يا طالباً بالعلم حظاً مُسعداً ... في ذا الزمان رأيتَ رأي مخرنقِ
إنفاق علم في زمان جهالةٍ ... ترجو ودهرَ عمى وسخفَ مطبّق
كن ساعياً ومصافعاً ومضارطاً ... تَنَل الرغائب في الزمان وتنفق
أو ما رأيت ملوك عصرك أصبحوا ... يتجملون بكل قاض أحمق؟
لا تلقَ أشباهَ الحمير بحكمة ... موّه عليهم ما قدرت ومخرق(٣)

وهذه صورة أخرى يطالعنا الشاعر عبر أدوات النسقية الناقدة لما تفشّى في أركان المجتمع من انحلال القيم وانخداع كامل بالظاهر دون التمسك بخصائص الجوهر النفيس.

وهو في كلامه مخاطباً (يا طالباً بالعلم حظاً مُسعداً)، حيث ينطلق إلى تعرية الوقائع وإظهارها عبر خاصية النسق الظاهر، فقد بات العلم جهالة وسخف، وكذلك الملوك الذين لا بدَّ أن تتوفر لديهم الرجاجة والفضل، فقد مالوا إلى ما كان أحمق تافه القول لانجذابهم لطريقة الكلام الفارغ. وهذا ما يتضافر مع معنى النسقي للنقد اللاذع، لأنَّ «العيوب الاجتماعية هيّأت الأرضية لولادة نص ساخر يدرك تماماً سلوكيات أبناء جنسه وعيوبهم ، فيعمد الشاعر إلى تصوير هذه العيوب، وتلك النقائص

(١) الأبعاد الاجتماعية في شعر محمد مشاري، خالد الشافعي، ص: ٢٨٢٩
(٢) الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٧، ١٩٨٧، ص: ٤٣
(٣) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٥٨

أبشع تصوير، ويضع يده على مواطن الضعف في المجتمع»[1].

وقد يكون تفسير النسق الاجتماعي عبر ما يتجه إليه الشاعر في شكل الهجاء صراحة، لأنَّ الهجاء يساعد بدوره على تجسيد حالة التفاوت ، فالهجاء فيه تقريع واستهجان مباشر، ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر في هجائه لأبي الهيذام كلاب بن حمزة:

يامن تطيَّبَ وهو من حُرقِ آسته ... قلق يكابدُ كل داء مُعضلِ
فشل الصيال وما عهدنا دبره ... قد كان يفشل عن صيال الفيشل
وأراه في الكتب الجليلة زاهداً ... لا يستجيد سوى كتاب المدخل
قبلته ولثمت فاه مسلماً ... لثم الصديق فم الصديق المجمل
فدنا إليَّ على المكان وقال لي ... أفديك من متشوّق متغزّل[2]

يعكس النسق المعرفي في الهجاء أبعاد النسق المضمر الاجتماعي، لأنَّ الشاعر في هجائه لا يذكر صراحة المعنى الذي يريده وإنما يكنّى عن ذلك من خلال الأوصاف والتعابير التي تساعده على ذلك، فقد جاء هجاؤه صاخباً مليئاً بالاستنكار لمهجوه، وعلى عادة الشاعر الذي يهجو يسعى إلى وضع كل ما يراه قبيحاً في أوصاف المهجو (فشل الصيال)، (أراه في الكتب الجليلة زاهداً، لا يستجيد سوى كتاب المدخل)، ففيه انتقاص واضح من قدر مهجوه لعدم امتلاكه القدرة على المحاججة والمنطق في أصل الكلام.

فالنسق الاجتماعي سواء أكان من النسق الظاهر أو المضمر فإنَّ الشاعر يوظّفه أبعاده من ناحية معرفية، ومن النسق الاجتماعي لصورة الجهل وعدم توفّر العناية بالفهم كما يصوّر ابن لنكك في شعره، ومن ذلك ما جاء في رده على قوم من العامة كانوا قد غضبوا من كلامه، فجاء يرد عليهم بما يعرّي حقيقة فهمهم في قوله:

وعصبة لما توسطتهم ... ضاقت عليَّ الأرض كالخاتم
كأنهم من بعد أفهامهم ... لم يخرجوا بعدُ إلى العالم
يضحك إبليس مسروراً بهم ... لأنهم عارٌ على آدم
كأنني بينهم جالسٌ ... من سوء ما شاهدتُ في ماتم[3]

(١) دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر، ص: ١٨٨
(٢) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٦٢
(٣) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٦٦

يتوجه الشاعر عبر رمزية النسق المضمر على الكشف عن عدم قدرة الفرد على التكيف مع أفراد مجتمعه، ولا سيما ما يصوّره في قوله (وعصبة لما توسطتهم، ضاقت عليَّ الأرض كالخاتم)، حيث يذهب الشاعر الى أدّق ما يمكن أن يفسّره خيال الشاعر العاطفي والنفسي حيث يواجه معاناته في وجود هذه النوع من الناس (كأنهم من بعد أفهامهم لم يخرجوا بعدُ إلى العالم)، وفي سبيل هذه المبالغة في تعرية حقيقتهم يذهب إلى تشبيههم بانتفاء كل صفات البشر والآدمية (يضحك إبليس مسروراً بهم لأنهم عارٌ على آدم) ، وبهذا يضعنا الشاعر أمام نسقية الخلق المنعدم الذي يكثر التلميح له في شعر ابن لنكك.

فقلما نجده مادحاً أو شاكِراً في صفات أفراد مجتمعه وأكثرها في الذم والهجاء والإشارة إلى خلخلة القيم الفكرية والإنسانية، ومن ذلك هجائه لأحدهم:

صداعٌ من كلامك يعترينا ... وما فيه لمستمعٍ بيان
مكابرةٌ ومخرقةٌ وبهتٌ ... لقد أبرمتنا يا مبرمانُ[1]

فإذا كان تفسير النسق الاجتماعي عبر صورة الهجاء فإنَّ للهجاء «اللسان الحاد والمر الصريح تفتقر إليه السخرية ، لأنها غالباً ما تكون مبطنة، غايتها الاستهزاء من شخص أو أسلوب أو فكرة فتحمل المتلقي على الاندماج، بغية الانتباه إلى النقص الحاصل في السلوك»[2]

المبحث الثاني
النسق النفسي في شعر ابن لنكك

إذا أردنا أن نتبع أثر النسق النفسي في شعر أي شاعر فإنَّ ذلك يدعو إلى التماس الأثر الفعلي للخواص الانفعالية التي يصدر عنها الشاعر، فقد شكّل البعد النفسي كنسق أهمية في تفسير عملية الإبداع بما ينطوي تحتها من مظاهر الانفعال، وصلته بالنفس الإنسانية الشاعرة ، فقد ركّز النقاد قديماً على أهمية الباعث النفسي أو البعد النفسي في تشكيل الشعر في صورته الكاملة، فقد أُشير قديماً إلى أهمية الانفعال والأبعاد النفسية التي كان يصدر عنها الشعراء، فقد شاع ما كان يُقال عن أهمية الانفعال في القول الشعري، «قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق»[3].

وهناك من وجد من النقاد أنَّ النسق النفسي في المجال الشعري يستند إلى قواعد الشعر فيما يصدر عنه الشاعر في حالات متعددة، حيث حُددت قواعد الشعر و بواعثه في الرغبة والرهبة والطرب والغضب ،

(١) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص:٦٩
(٢) الأدب الساخر، شمسي زاده، أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، ١٣٩٠هـ، ص: ١٠٨
(٣) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٥، القاهرة، ١٩٨٥، ج:٢، ص: ٣٢٠

«مع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيم، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع»(١).

بمعنى آخر إنَّ لانعكاس البعد النفسي على تجربة الشاعر هو الذي يحدد الوجهة التي ينطلق منها في التعبير عما يجيش في ذاته، ذلك أنَّ حقيقة البواعث النفسية لعملية الإبداع هي في أنها «أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الأمور مما يناسبها أو ينافرها ويقبضها لاجتماع البسط والقبض والمناسبة والمنافرة من الأمر من وجهين، فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالمسرة والرجاء ويقبضها بالكآبة والخوف، فقد يبسطها أيضاً بالاستغراب لما يقع فيه من اتفاق بديع»(٢). ومن منطلق آخر يتم تحديد النسق النفسي من وجهة علم النفس «كالدافع، والحاجة والغريزة، وبطرق معينة، ولكنها عمليات داخلية تفسّر السلوك البشري، لا يمكن ملاحظتها بصورة مباشرة، بل تستنتج من الاتجاه العام للسلوك الصادر عنها وتحليله»(٣).

وتفسير ذلك في المجال الشعري أنَّ الشاعر يبدع بتأثير الدافع الذي يمثّل الامتثال الحقيقي لمتطلب داخلي أصيل، كما أنه يبدع بتأثير الحافز الذي يمثّل عناصر حث واستحداث استجابة واعية في الشاعر لمثير خارج عنه، «فالشعر المنتج تحت وطأة الدافع يظل أعمق موضوعاً وأرهف صورة من الشعر المنتج تحت وطأة الحاضر الذي يتسم بالسطحية والتقريرية»(٤).

ومن انعكاس الانفعال في تحديد النسق النفسي عند ابن لنكك ما جاء في التعبير عن انفعاله في قوله:

لنصر في فؤادي فرط حب ... ينيفُ به على كل الصحاب
أتيناه فبخرنا بخورا ... من السعف المدخن بالتهاب
فقمت مبادرا وحسبت نصراً ... يريد بذاك طردي أو ذهابي
فقال متى أراك أبا حسين؟ ... فقلت له إذا اتسخت ثيابي(٥)

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢، ج: ١، ص: ١٢٠

(٢) مناهج البلغاء وسراج الأدباء، أبو حازم القرطاجني، تحقيق : محمد ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨، ص: ١١

(٣) مدخل إلى علم النفس، لندا دافيدوف، ترجمة : سيد الطواب، منشورات مكتبة التحرير، ط٣، ١٩٨٣، ص: ٤٣١

(٤) نقد الشعر في المنظور النفسي، ريكان إبراهيم، وزارة الثقافة والإعلام، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩، ص: ٥١

(٥) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٣٧

وتفسير ذلك في المجال الشعري أنَّ تحديد النسق النفسي يعكس تأثير الدافع الذي يصدر عنه، وهنا في هذا السياق يتوجه إلى مخاطبه (لنصر في فؤادي فرط حب) وهو ما يعطي شكل البعد النفسي القائم على تصوير الناحية الوجدانية (الحب) الذي يعكس الدافع النفسي المتعلق بالرغبة والدافع أو ما يُسمَّى بعلم النفس (العنصر التحفيزي)، بمعنى إنَّ الشاعر لا يكتب لمجرد الكتابة، بل إنَّ شعوره هو الذي يحدد النسق النفسي للرغبة فيما إذا كانت عن حب أو كره، لذلك يتوسع الشاعر في عرض آثار الانفعال النفسي فيما يتوجه إليه من أوصاف (أتيناه فبخرنا بخورا من السعف المدخن بالتهاب).

وقد نجد الانفعال ما يعكس النسق النفسي عبر شدة الحساسية والاستعداد لانتقاد في صورة الامتعاض لما يشعره حيال المناخ والبيئة ، ومن ذلك ما جاء في تصويره لأشهر السنة التي يرى فيها سوء أحواله لما يشعره:

حزيرانٌ وتمـوزٌ وآبٌ ثلاثـة أشـهر فيهـا العـذاب
فـإذا قرنـت بشـهر الصـوم صرنـا سـبائك في بواتقهـا تُـذاب[1]

وهذا ما يعطي التفسير الدقيق لانفعالات الشاعر المفرطة فيما يخص التطلّع إلى مزاجه المتقلب، وقدرته على تحمّل أيام الحر في هذه الأشهر، وهذا ما أدّى بدوره إلى تشكيل موقف انفعالي قد اقترن بصورة سلبية للمناخ في مدينته، ولا سيما أنَّ المكان الذي يعيش فيه الشاعر ما يشهد درجات حرارة عالية، لذلك يطالعنا الشاعر عبر صورة الانفعال إلى ما يحيط بأبعاد النسق النفسي الانفعالي الذي تشكله هذه الصورة، ومن ناحية أخرى استطاع أن يبدع في تشكيل أطراف الصورة بما يعطيها البعد الانفعالي الخاص بها.

وقد يكون الصدور عن الحب من أكثر ما يعطي أبعاد النسق النفسي، لأنه يطلعنا على أجمل وأصدق صورة يمكن أن يظهرها الشاعر في ذلك، ومن ذلك ما جاء في شعر ابن لنكك:

البـدر والشـمس المنـيرة والـدُّمـى والكوكـب
أضحـت ضرائـرَ وجهـه مـن حيـث يطلـع تغـرب
وكأن جمـرَ جوانحـي في خـده تتلهـب
وكأن غصـن قوامـه مـن مـاء دمعـي يـشرب

(١) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٣٧

وصوالـــجٌ في صُدغـــه بسواد قلبي تلعب[1]

تضعنا هذه الصورة الوصفية (البدر، الشمس، الكواكب) في التمهيد لما يحسُّ به الشاعر من التهاب مشاعره وحدّتها ولا سيما ما يبلغ ذروة التوصيف النفسي في قوله (وكأن جمرَ جوانحي في خده تتلهب) إشارة إلى ما يكابده من شدة الوجد تجاه الآخر الذي يقصد إليه، حيث يشكّل التشبيه تفسيراً في تحديد شكل النسق النفسي الذي تشكله بنية النص متكاملاً، وفي قوله (وكأن غصن قوامه من ماء دمعى يشرب)، وكذلك إشارة إلى أنَّ قلبه قد أصبح أسود اللون (سواد قلبي) ما يتضافر نفسياً ما تداعيات الاحتراق الشعوري الذي يصوّره، ذلك أنَّ للنسق النفسي ما ينطوي على تجسيد أثر البعد الوجداني (الحب) في كل ما يمكن أن نعرفه عن ذات الشاعر من خلال حالة الانسجام والتوافق والاندماج في ظلال الحب، فما يظهره من أوصاف تتقاطع مباشرة مع دلالات الأثر النفسي الخالص الذي توضحه بشكل فعلي أنا الشاعر البارزة (دمعي ، قلبي، جوانحي).

وقد يكون النسق النفسي عبر تداعيات الشعور بالمرارة والتحسّر على فوات الشباب الذي كان يمثل محطات الأمان بالنسبة للشاعر، حيث يشير إلى التفاوت الحاصل في ذلك في قوله :

تولى شباب كنت فيه منعما تروح وتغدو دائم الفرحات
فلست تلاقيه ولو سرت خلفه كما سار ذو القرنين في الظلمات[2]

فهذا ما يتقاطع نفسياً مع حالة التحسّر التي يحسّها الشاعر لطالما أبدى الشعراء التذمّر الواضح من التقدم في العمر، وانقضاء مرحلة الشباب بما تعكسه من الحسرة والتوجع على النعيم الذي كانوا فيه خلال ذلك، إذ يشير عبر النسق النفسي المحدد (الحسرة) أنه ذاهب لا محالة ، ولا يمكن القبض عليه مجداً (فلست تلاقيه ولو سرت خلفه كما سار ذو القرنين في الظلمات).

وقد يكون النسق النفسي متمركزاً في انفعال الكره والبغض، وهو ما كثر إظهاره عند الشاعر ابن لنكك، ولاسيما ما جاء في سبيل التعريض والذم لبعض الاشخاص والحط من قيمتهم بشكل لافت في إشارة واضحة إلى تحديد الشخص باسمه، ومن ذلك ما جاء في هجائه لأبي رياش:

أبو رياش بغى والبغي مهلكة فشدّدوا العينَ ترموه بآبدته
عبدٌ ذليلٌ هجا للحين سيده تصحيفُ كنيته في صدغ والدته[3]

(١) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص:٣٨
(٢) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٣٨
(٣) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٣٩

كثيراً ما يظهر لنا التعبير النفسي في المجال النفسي عن المكبوتات الدفينة التي تعتمل جوانية الشاعر، ولا سيما إذا كان التناول صادراً عن حالة من التذمر والكره وعدم المحبة والاطمئنان إلى الطرف الآخر، لذلك يشير بشكل ساخر ومبالغ فيه إلى أنَّ المهجو قد نال سخط البغي في أعلى مراتبه ، حيث أصبح البغي بدوره مهلكة ، حيث يسخّر الشاعر قدرته الفنية من أجل الإطاحة بخصمه نفسياً دافعاً به إلى منطقة التوتر من أجل التمكن منه و هزيمته، حيث يبلغ الأثر النفسي أعمق صدى من خلال ما ينسبه إلى غريمه (أبي رياش) في أكثر ما يمكن تصوره من مناطق الإهانة والتبخيس والحط من قدره ، حيث تساعد صورة التشبيه البليغ على تجسيد الأثر النفسي الخالص في هذه الحالة، إذ يقرّ صراحة بأنه (عبد ذليل) بما يمكن فهم هذا الوصف، فلم يبق شيئاً جميلاً يعود في ذكر مهجوه.

ومما يعمّق تداعيات النسق النفسي في تشكيل صورة الهجاء التي يصدر عنها الشاعر أنه قد تطرّق إلى هجاء أبي رياش في موضع آخر، وكأنه يريد أن يعزّز أوصافه القبيحة في نفس كل من يعرفه، ومن تلك الحدة النفسية ما جاء في صورة هجائه له في قوله:

على القبح الفظيع أبو رياش يعاشرنا بأخلاق ملاح
يُبحُ أكفنا أبداً قفاه فنصفعه على جهة المزاح[1]

لا يصمد الشاعر أمام حالة الغضب التي يصدر عنها، فيهجم على غريمه من ناحية تقبيح خلقته نظراً لما يراه في سوء أفعاله، حيث يستمر في هذا التشكيل ليصل إلى أعمق أثر يمكن أن يفهمه المتلقي لهذه الصورة في أكثر ما يشهد حالة النفور من الأعمال التي يقوم بها هذا الشخص.

وقد نشهد خلاف صورة الهجاء، أي قد يصدر الشاعر عن حالة مناقضة الشعور الامتعاض والكره إلى صورة التغزل والحديث عن الهوى والجوارح في أجمل ما يمكن وصفه في حالة اعتداد نفسي، ومنه ما جاء في قوله:

أتطمعُ أن تحبُّ ولا جفونٌ مؤرّقةٌ ولا قلبٌ جريح
فأين هوى تذوب به وتبلى أراك تظنُ أنَّ الزمر ريحُ[2]

فكما يظهر لنا أنَّ لصورة التغزل ما يعطي عدة تفسيرات لتحديد شكل النسق الثقافي، ولا سيما أنَّ الشعور انزاح عن كل ما يقلق الذات الشاعرة، فهو يرى أنَّ في صورة المتغزل به ما يعطي الطاقة

(١) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٤١
(٢) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٤١

الوجدانية المستقرة ، لذلك يستنكر الشاعر أن يكون الحب سهلاً على صاحبه، ويصوغ ذلك بأقصى تشكيل صوري في التعبير عن ذلك (أتطمعُ أن تحبَّ ولا جفونٌ مؤرّقةٌ ولا قلبٌ جريح)، بما يجعل نقطة الارتكاز في الأثر النفسي ما يتوافق مع مواجهة الصعوبات والتحديات في ظل الوصول والارتقاء إلى صورة الحب في أبهى تشكيل، وهو بذلك يُعاين الأثر النفسي الذي يصدر عنه حال كل محب صادق في الحب، فيجد أنه لا بدَّ أن يلاقي المرء هذه التحديات ما أمكنه إلى ذلك.

وبمنحى آخر إنَّ في ناحية الحب والغزل ما يساعد على التعرّف على شيء من الأبعاد النفسية الوجدانية التي تشكّل شفافية الصورة التعبيرية (فأين هوى تذوب به وتبلى أراك تظنُ أنَّ الزمر ريحُ)، ولا سيما أنَّ الحواس «تتجنّد في ساحة العشق لتؤدي ما يختلج في النفس من شوق الحبيب وما يعانيه العاشق من وجد وما يعتريه من عُصاب وما يتردّى به موقفه من حيرة واضطراب، كما تظهر ضمناً نفسه إلى الجمال»(١)

وقد تكون حالة الأشياء هي ما يشكّل النسق النفسي الذي يصدر عنه الشاعر، ومن ذلك ما جاء في قوله:

لم يبقَ حرّ إليه يختلف ... بل كل نذل عليه مختلف
يا فلكاً دار بالنذالة والجهل ... إلى كم تدور يا خَرف
فعاقلٌ ما يَبلُّ أنمله ... وجاهلُ باليدين يغترف(٢)

إذا أردنا أن نفسر حالة الاستياء الشعوري التي يصدر عنها الشاعر في هذه الأبيات ، فإنَّ مردّها إلى أنَّ البواعث النفسية تعكس داخلية المرء وجوانيته «فالبواعث النفسية تعود إلى الطبيعة البشرية نفسها، فيقررون إنَّ الإنسان قادر بطبعه على التعبير عن أفكاره بأي وسيلة من الوسائل، ويعدون من النزعات الفطرية العامة، نزعة التعبير عما في النفس، ومعنى ذلك إنَّ الإنسان لا يطمئن إلى احتباس معانيه وأفكاره في نفسه ، وإنما ينزع بطبعه إلى نقل هذه الأفكار إلى غيره بالتعبير عنها»(٣).

حيث يطالعنا الشاعر على عادته عبر التجسيد الشعوري لحالة عدم الرضا والقبول للتنافر الذي يقيم عليه الأحوال في الطبائع عند الناس، فكل طرف لا بدَّ أن يلاقي نقيضه الآخر، والعالم مليء بهذه التناقضات ولا يمكن أن تستقيم الدنيا إلا بما تدوره به في ظلال التنافر الحاصل (النذالة، الجهل) من أكثر الأمور التي يمكن أن تدور في فلك العالم ، فكل عاقل يقابله جاهل، وذلك يتواشج مع حالة النفور

(١) الحواس في الأشعار الأندلسية، يوسف عيد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ٢٠٠٢، ص: ٢٢٥
(٢) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٥٦
(٣) دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر، ص: ٨٢

التي يصدر عنها الشاعر، حيث يجعل الطرف الأول مقابلاً للطرف الثاني (فعاقلٌ ما يَبلُّ أنمله) في مقابل (جاهل باليدين يغترف)، ومن خصائص النسق النفسي أنه يطلعنا على المكبوت في انعكاسه في الصورة التعبيرية الخالصة في قول الشاعر، «وكأن الشاعر في بعض المواقف يبدو مفصولاً عن العالم الخارجي بسبب عدم التوافق بين العالم الخارجي وعالمه الذي يبحث عنه ويسر له، فعندما يكون الاعتزال من هذا العالم الخارجي في فكر الشاعر مطلباً، حينها ندرك أنَّ حالته وصلت إلى أبعد صفاتها المتأزمة»[1].

ومن ذلك التصوير الذي يعكس حالة الأسى التي يشعر بها الشاعر نظراً لما تعرّض له وقلب أحواله، وذلك في قوله:

نكرت نُحولي وهو من فرط الأسى لفراق إخوان على كرام
وتعجّبت للشيب لالا تتعجّبي هذا غبارُ وقائعُ الأيام[2]

فلا بدَّ أنَّ حالة التحسر على ما حلَّ به تشعر بتضاعف الأثر النفسي الذي يصدر عنه في قوله (نكرت نحولي) إذ يعلّل سبب تغير شكله إلى ما عاناه من (فرط الأسى لفراق إخوان)، أي أنه يتودّد إلى كل ما يعاتبه على الحال التي وصل إليها، فهو لم يجد نفسه إلا حزيناً ذائباً على فراق أحبته، وإذا كان التعجب كذلك من حالة الشيب التي اعترته، فإنها يعزوها عبر تداعيات النسق النفسي إلى أنها عبارة عن تراكم لآثار الأيام الأليمة التي كانت موجعة (هذا غبارُ وقائعُ الأيام)

الخاتمة

بهدي من هذه الدراسة، بإمكاننا أن نلخص ما توصلت إليه هذه الدراسة في عدد من النقاط:

١- إن لدراسة الأنساق الثقافية في شعر ابن لنكك ما يستدعي دراسة الصور التي تعكس تفسير النسق في أبعاده كافة سواء الاجتماعية او النفسية.

٢- يساعد تلقي النسق الثقافي على دراسة مادة التشكيل التعبيري سواء عن طريق النسق الظاهر او المضمر.

٣- لقد عكس التناول لأبعاد النسق الثقافي في شعر ابن لنكك ما يسهم في إعطاء الطابع العام الذي يبين تناول شعره للقضايا بشكل واقعي عن طريق النقد الهادف وفق نسقية الأنساق الثقافية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وبتوفيق من الله عز جلاله تمّ إنجاز هذا البحث.

(١) أزمنة المواطنة في شعر ابن لنكك، رائد الدليمي، ص: ١٧٩
(٢) شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، ص: ٦٥

المصادر والمراجع:

١. الأبعاد الاجتماعية في شعر محمد مشاري، خالد الشافعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مجلة الدراسات العربية، جامعة المينا، د. ت.

٢. الأدب الساخر، شمسي زاده، أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، ١٣٩٠هـ.

٣. الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٧، ١٩٨٧.

٤. أزمنة المواطنة في شعر ابن لنكك، رائد الدليمي، مجلة كلية المعارف، عدد ٢٧، كلية الآداب، جامعة الأنبار، العراق، ٢٠١٨.

٥. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٥، القاهرة، ١٩٨٥.

٦. التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٦.

٧. التلقي والسياقات الثقافية، عبد الله إبراهيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، د. ت.

٨. الحواس في الأشعار الأندلسية، يوسف عيد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ٢٠٠٢.

٩. دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر، المطبعة الأنموذجية، د.ت.

١٠. شعر ابن لنكك البصري، زهير زاهد، منشورات الجمل، ط١، ٢٠٠٥.

١١. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢

١٢. مدخل إلى علم النفس، لندا دافيدوف، ترجمة : سيد الطواب، منشورات مكتبة التحرير، ط٣، ١٩٨٣.

١٣. مناهج البلغاء وسراج الأدباء، أبو حازم القرطاجني، تحقيق : محمد ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨.

١٤. نقد الشعر في المنظور النفسي، ريكان إبراهيم، وزارة الثقافة والإعلام، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩.

Sources and References:

1. Social Dimensions in the Poetry of Muhammad Mishari, Khaled Al-Shafei, College of Arts and Humanities, Journal of Arab Studies, Minya University, n.d.

2. Satirical Literature, Shamsi Zadeh, Its Types and Development Over the Past Eras, 1390 AH.

3. Literature and Its Arts, Izz Al-Din Ismail, Dar Al-Fikr Al-Arabi, 7th ed., 1987.

4. Times of Citizenship in the Poetry of Ibn Lenkak, Raed Al-Dulaimi, Journal of the Faculty of Knowledge, No. 27, College of Arts, University of Anbar, Iraq, 2018.

5. Al-Bayan wa Al-Tabyeen, Al-Jahiz, Edited by: Abdul Salam Haroun, Al-Khanji Library, 5th ed., Cairo, 1985.

6. Similarity and Difference, Muhammad Miftah, Arab Cultural Center, Beirut, 1996.

7. Reception and Cultural Contexts, Abdullah Ibrahim, United New Book House, 1st ed., n.d.

8. The Senses in Andalusian Poetry, Youssef Eid, Modern Book Foundation, Tripoli, Lebanon, 2002.

9. Studies in Literary Psychology, Hamed Abdel Qader, Al-Antamuzhiyah Press, n.d.

10. The Poetry of Ibn Lenkak Al-Basri, Zuhair Zahid, Al-Jamal Publications, 1st ed., 2005.

11. Al-Umda in the Beauties of Poetry, its Literature and Criticism, Ibn Rasheeq Al-Qayrawani, edited by Muhammad Abdel Hamid, Dar Al-Jeel, Beirut, 4th ed., 1972.

12. Introduction to Psychology, Linda Davidov, translated by Sayed Al-Tawab, Maktabat Al-Tahrir Publications, 3rd ed., 1983.

13. Methods of Eloquence and the Lamp of Literati, Abu Hazem Al-Qartajani, edited by Muhammad Ibn Al-Khawja, Arab House for Books, Tunis, 2008.

14. Criticism of Poetry from a Psychological Perspective, Rikan Ibrahim, Ministry of Culture and Information, General Directorate of Cultural Affairs Press, Baghdad, 1989.